حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد الثاني . شهر رمضان ١٤٣٣هـ / آب . ٢٠١٢م

٢

مرقد الشهيد مسلم بن عقيل عليه السلام سنة ١٩٣٥م

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

السجون في الكوفة في القرن الأول الهجري

الأستاذ طالب علي الشرقي

رئيس اتحاد الأدباء والكتاب في النجف سابقاً

تمثل الكوفة منذ تمصيرها عام ١٧ هـ والى مقتربات نهاية القرن الأول الهجري جزءاً مهماً من تاريخ العراق المسلم في الجوانب الإدارية والعسكرية والسياسية والفكرية، وتفردت تلك الحقبة بكثرة التناقضات والتجاذبات بل الصراعات، وذلك لتعدد الألوان التي تُشكل النسيج المجتمعي، فتتقاطع المصالح وتتباين الولاءات، وتتقلّب تبعاً للظروف، وتفاعلاً مع قوة السلطة وضعفها.

والحديث عن الحياة العامة في الكوفة لدى الباحثين قد أخذ عدّة مسارات، وطَرَقَ مختلف الأبواب، واحتل مساحة واسعة من متون المدوّنات، ولم يكن يوماً مهملاً أو منسياً، فلطالما كان مسجداً لأقلام الدارسين ومضماراً لتسابق المؤرخين، حتى أضحى الكتّاب الجدد الطامعون في تناول شيء من ذلك العالم الزاخر بالأحداث والمفارقات والنقص والزيادات تضيق بهم طرق البحث والتفتيش عن معلومة أو قضية أخفتها عظائم الأمور، فأهملها الرواة والمحدّثون وجمهرة الموثقين. ومع ذلك فإنّ البيدرَ عظيم، وما تناوله الأولون بالذكر يتناوله المتأخرون بالوصف والتحليل والشواهد المتيسّرة، ومن ذلك موضوعة «السجون» فهي من الأمور التي ذكرها المؤرخون ذكراً عابراً دون الوقوف عندها ببحث مفصّل يكشف عن عدد السجون في الكوفة ومواصفاتها الإنشائية وكيفية معاملة السجناء فيها.

وقبل الدخول في صلب الموضوع نقول: إنّ وجود السجن قديم، فليس هو من مبتكرات المسلمين. ذكره القرآن المجيد في سورة يوسف(عليه السلام) بقوله تعالى: ﴿**قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ**﴾[١] فهو موجود قبل ان يدخله النبي يوسف. وذكره القرآن الكريم أيضاً على لسان فرعون مع النبي موسى(عليه السلام) بقوله تعالى: ﴿**قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ**﴾[٢] ثم إنّ هناك تلازماً جدلياً بين الحكومة والسجن، وهو رديف القضاء.

والقضاء – يراد به منصب الفصل بين الناس في الخصومات – قديم، لأن الأنسان لم يستغن عمن يفصل في قضاياه... وكان قضاة القبائل عقلاءها وكبارها، وهم أيضاً حكامها وأمراؤها... وكذلك العرب في جاهليتهم يتقاضون الى وجهائهم وعقلائهم... ويتقاضون الى الكهّان والعرّافين. أما في الإسلام فاول من تولى القضاء النبي(صلى الله عليه وآله) ثم تولاّه الخلفاء من بعده، حتى إذا اتسع السلطان وكثرت المهام اضطروا إلى إستنابة من يقوم عنهم بالقضاء في مركز الخلافة أو في الأعمال، وأول من فعل ذلك عمر بن الخطاب. وتتابع على منصب القضاء في الكوفة مجموعة من القضاة كان أولهم عروة بن أبي جعد ولاّه عمر قضاء الكوفة قبل شريح[٣]. ومن البديهي أن يتفاوت القضاة في المقدرة المهنية والحصيلة الفقهية ودرجة الذكاء والفطنة والورع، فتصدر عنهم أحكام بعضها متكاملة الأركان وأخرى يعتورها الضعف والخلل وربما تصدر أحكام باطلة لا يعضدها قرآن أو سنّة صحيحة أو اجتهاد نزيه، بل توجهها رغبات الأقوياء وسطوة الحكام وتأثير المال والجاه. فإذا وصل الأمر إلى إصدار الأحكام بدافع الحقد وتصفية الحسابات أو تقاطع الاعتقادات والولاءات فإن القضاء يفقد شرعيته ويتحول الى أداة من أدوات الظلم والتعسف. وقد أصبح كذلك بعد رحيل الإمام الحسن بن علي(عليه السلام) من الكوفة، وتمكُن الحاكم المستبد، فعطل القضاء وصارت الأوامر تصدر عنه مباشرة.

في تلك الحقبة حكم الكوفة ولاة أقل ما يقال عنهم انّهم عبيد الدنيا، لا يحسبون للعدل والدين حسابا. يحكمون الناس

(١) سورة يوسف الآية ٣٣.

(٢) سورة الشعراء الآية ٢٩.

(٣) البراقي / تاريخ الكوفة ص ٢٢١ – ٢٢٨.

بالشدّة والإذلال ، وقد أسس معاوية ابن أبي سفيان لهم ذلك عندما دخل الكوفة بعد الإتفاق والعهد (الصلح) الذي عقده مع الإمام الحسن(عليه السلام) فقال: «يا أهل الكوفة ، إنّي والله ماقاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا ، وإنكم لتفعلون ذلك ، ولكني قاتلتكم لأتامر عليكم وقد أعطاني الله ذلك وانتم كارهون ، ألا انيّ قد منّيت الحسن بن علي أشياء وأعطيته أشياء وجميعها تحت قدمي ، لا أوفي بشيء منها..»[1] فإذا كان رأس الهرم يخالف كتاب الله الذي نصّ بقوله تعالى: ﴿**أَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذا عاهَدْتُمْ**﴾[2] وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**﴾[3] فماذا ننتظر من الأتباع الذين يحكمون الناس بالقهر والإفقار والتجويع والحبس والقتل ؟ إنّهم أدوات قمع وجباة أموال وحرّاس حكم جائر مستبد.

وأول طاغية حكم الكوفة إبّان النهضة الحسينية الإصلاحية الرائدة هو عبيد الله بن زياد بن أبيه.... ولاّه يزيد بن معاوية... الكوفة ، وأمره أنْ لا يضع كتاب التولية من يده حتى يرتحل الى الكوفة ويضيّق على إبن عقيل ويتبع من شايعه بالقتل والسجن[4] وقد نفّذ الوحش الكاسر أوامر سيده وتفنن في تخذيل الناس عن مسلم بن عقيل وإفشال مهمته وذلك بالترهيب والترغيب.

وبعد مقتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة ، قَتَلَ عبيد الله بن زياد كوكبة من وجوه الشيعة ومن قادة الثورة الذين بايعوا مسلماً ، واعتقل آخرين ، ثم لم يتورع في سجن أغلب الذين أظهروا الولاء للحسين ووقفوا مع مسلم بن عقيل واتخذ من قصر الأمارة في الكوفة سجناً لكبار الشيعة ولمن عقد لهم مسلم بن عقيل ألوية عند الهجوم على القصر والإحاطة به قبل أن يتفرق الناس ويبقى مسلم وحيداً وبعد القبض على الوجوه من أوليائه[5] وعندما قال أسماء بن خارجة لعبيد الله بن زياد: أرُسُلُ غدرٍ سائر اليوم ؟ أمرتنا ان نجيئك بالرجل (هانئ بن عروة) حتى اذا جئناك به وأدخلناه عليك هشّمت وجهه وسيّلت دمه على لحيته وزعمت أنك قاتله ! فقال له عبيد الله: وانك لها هنا ؟ فأمر به فلُهز وتعتع به ثم ترك فحبس[6]. وحبس قادة وأشرافاً آخرين منهم المختار بن أبي عبيد وعبد الله بن الحارث بن نوفل[7] وميثم التمار ، فيمن أخذ وأمر بصلبه[8]. أما فعله بُرشيد الهجري فقد فاق حد التصور ، فقد أمر عبيد الله بن زياد بقطع يديه ورجليه ثم قطع لسانه فمات[9]

وليس ذلك بغريب أو كثير على عبيد الله فقد ورث ذلك من أبيه زياد ، قال عبيد الله بن زياد لهانئ بن عروة: يا هانئ أما تعلم أنّ أبي قَدِمَ هذا البلد فلم يترك أحداً من الشيعة إلاّ قتله غير أبيك وغير حجر...[10] ومع ذلك تخطّى عبيد الله بن زياد حدود قسوة أبيه «وكان أكثر قسوة... حتى انه نكّل بالخوارج أشد تنكيل وامتلأت بهم السجون[11].

وشاء الله تبارك وتعالى أن ينتقم من يزيد بن معاوية لفسقه وجرأته على حرمات الله ومقدسات الإسلام وفي مقدمتها قتله لابن بنت النبي(صلى الله عليه وآله) الإمام الحسين بن علي(عليهما السلام) وأهل بيته وأصحابه وسبي عياله ، فعجل في مماته.

وكان الشيعة في الكوفة قد تعاهدوا للخروج على قتلة الإمام الحسين(عليه السلام) ، بقيادة سليمان بن صُرد ، وتسموا بـ (التوابين). وفي نفس الوقت أظهر المختار بن أبي عبيد الثقفي دعوته للثار من قتلة الإمام الحسين(عليه السلام) ، ولكن رؤوس المتورطين بقتل الحسين أمثال عمر بن سعد بن ابي وقاص وشبث بن ربعي وغيرهم ذهبوا الى المختار يريدون أن يوثقوه بالحديد ويخلّدوه في السجن حتى يستقيم أمر الناس ، وقد فعلوا ذلك. قال أبو مخنف: وأما يحيى بن أبي عيسى فحدثني أنه قال: دخلت اليه مع حميد بن مسلم الأزدي نزوره ونتعاهده فرأيته مقيداً. قال فسمعته يقول: أما ورب البحار والنخيل والأشجار.... لأقتلن كل جبار... حتى إذا أقمت عمود الدين ورأيت شعب صدع المسلمين وشفيت غليل صدور المؤمنين وأدركت ثار النبيين... الخ فكان إذا اتيناه وهو في السجن ردد علينا هذا القول حتى خرج منه[12].

ثم جاء دور الحجاج بن يوسف الثقفي الذي ولاّه عبد الملك بن مروان العراق فدخل الكوفة وأسمع أهلها مالم يسمعوه من قبل حيث بدأ أول خطبة له في مسجدها:

---

(١) الشيخ المفيد / الأرشاد ص١٧٣.

(٢) سورة النحل الآية ٩١.

(٣) سورة آل عمران الآية ٧٧.

(٤) عبد الواحد المظفر / سفير الحسين مسلم بن عقيل ص٧٤.

(٥) البراقي / تاريخ الكوفة ص٢٩٧.

(٦) الطبري / تاريخ الطبري ٥: ٣٦٧.

(٧) المصدر السابق ، ص ٣٧٠ ، ٣٨١.

(٨) البراقي / تاريخ الكوفة ص٣٠٥.

(٩) المصدر السابق ، ص٣٠٩.

(١٠) الطبري / تاريخ الطبري ٥: ٥٦٠.

(١١) الدكتور محمد حسين الزبيدي / الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأول الهجري ص ٢٧٢.

(١٢) الطبري / تاريخ الطبري ٥: ٥٨١ – ٥٨٢.

انـــا ابـــن جـــلا وطـــلاّع الثنايـــا
متـــى أضـــع العمامـــة تعرفـــوني

ثم أضاف: أما والله إني لأحمل الشرَّ محله ، وأخذوه بنعله ، وأجزيه بمثله ، وإني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها... وإني والله يا أهل العراق ما أغمز كتغماز التين ولا يقعقع لي بالشنان... الخ[1] وهدد وأوعد بالقتل والتنكيل. «لقد نشر بينهم حكماً عرفياً عسكرياً ، وأسرف في القتل فكان يأخذ بالريبة والظنّة ويقتل قوماً ليرهب آخرين فانه ما ترك محتجاً على فعل الاّ قضى عليه»[2] وملأ السجون بالمذنب والبريء وأذاقهم الهوان وهو القائل: «... فأنكم طالما أوضعتم في الفتن وسننتم سنن الغي ، أما والله لألحونّكم لحو العود ولأعصبنّكم عصب السلَمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، إني والله لا أعد إلاّ وفيت ولا أخلق إلاّ فريت... والله لتستقيمنَّ على سبل الحق أو لأدعنَّ لكل رجل منكم شغلاً في جسده»[3].

وهكذا كانت نتائج تفريطهم وخذلانهم لحكم العدل والحق ، حكم أمير المؤمنين الإمام عليّ(عليه السلام) فذاقوا ثمار سوء تصرفهم وكذب ولائهم وانحياز أغلبهم لرغباتهم الآنية أو لأحقادهم الدفينة وهم يعلمون ان رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال لصحابته كافة: «عليّ أقضاكم» وقال أيضاً «علي مع الحق والحق مع علي...»

لقد كان أمير المؤمنين(عليه السلام) يعلّم القاضي كيف يتصرف وكيف يحكم ، فقد علّم شريحاً القاضي آداب القضاء. فعن سلمة بن كهل قال: سمعت علياً(عليه السلام) يقول لشريح: أنظر الى أهل المَعْكِ والمَطْلِ ودفع حقوق الناس من أهل المقدرة واليسار..... فخذ للناس بحقوقهم منهم واعلم انه لا يحمل الناس على الحق إلاّ من ورّعهم عن الباطل ثم واسِ بين المسلمين بوجهك ومنطقك ومجلسك.... وإياك والضجر ، والتأذي في مجلس القضاء ، واعلم ان الصلح جائز بين المسلمين إلاّ صلحاً حرّم حلالاً أو أحل حراماً ، واجعل....[4]

نعود إلى السجون في الكوفة. فعلى الرغم من عدم تحديد أعدادها ومواقعها ومواصفاتها ، إلاّ أنّ المصادر التاريخية المعتبرة صرحّت بوجودها. لقد وجدت العلامة الفرنسي لويس ماسنيون في كتابه «خطط الكوفة» يقول: «كان يوجد في الكوفة سجنان ، وقد رأينا بأن السجن القديم كان في غرب المدينة قرب الكناسة»[5] وعند ذكره لضاحية الكناسة المندرسة قال ماسنيون: والسكة التي كانت تمتد من الكناسة إلى السجن القديم سمّيت بـ (سكة شبث) نسبة إلى رئيسهم الخارجي شبث بن ربعي[6] ولم يذكر أي شيء يتعلق بالسجن... مما يدل على ان المصادر التي تناولت خطط الكوفة لم تهتم بامر السجون أو لسبب آخر لم أقف عليه.

في كتابي المطبوع «قصور العراق العربية والإسلامية حتى نهاية العصر العباسي ٥٦٥هـ»[7] ذكرت بناءً اثرياً تمّت عملية التنقيب فيه مؤخراً من قبل الدكتور كاظم الجنابي وسماه (قصر أم عريف)[8] وقال: تقع خرائب هذا القصر خارج مدينة الكوفة على بعد سبعة كيلو مترات الى الجنوب الشرقي من دار الامارة... وتشغل خرائب القصر مربعاً من أرض رملية قليلة الإرتفاع يكثر عليها كسر الفخار والآجر. وقدَّر الدكتور الجنابي تاريخاً لهذا البناء فقال: إنه يرجع الى أواخر العصر الأموي ، بالدلائل التي عثر عليها فيه..

وعن مخطط البناء قال الدكتور: القصر مربع الشكل أبعاده ٦١×٦١ متراً ، والجدران فيه سميكة مشيّدة بالآجر والجص وأحياناً كسر الحجر ، معدل سمكه ثلاثة أمتار تقريباً متعامد وموازٍ بعضها للآخر ، وكانت هذه الجدران مغلفة جميعها بنوع خاص من الآجر المطلي بدهان أزرق غامق قياسة ١٨×١٨×٣ سنتمتراً ويبدوا أن هذا البناء معقّد في تصميمه ، إذ ظهرت به مداخل من جميع جهاته يؤدي بعضها إلى البعض الآخر. وظهر أيضاً أنّ جدران القصر كانت في الأصل تحمل عقوداً مقببة... وان جدران القصر محاطة من الخارج بسور مربع تربيع البناء ، يتوسط ضلعه الشمالية الشرقية مدخل عرضه ١،٨٠ متراً. وكشف البحث الأثري أن (القصر) جميعه محاط من الخارج بسور ضخم من اللبن عرضه حوالي ٣،٥ متراً وكل جدار من جدرانه يضم أبراجاً نصف دائرية قياسها ٣ أمتار تقريباً وتنتهي أطراف السور بابراج نصف دائرية أيضاً ، وليس السور مربعاً في جميع أجزائه فالضلع الشرقية منه تنتهي من الشمال الشرقي بحنّية تؤلف زاوية قائمة ، وكذلك ضلعه الشمالية الغربية إذ تبرز إلى الخارج على شكل مستطيل غير تام الأضلاع ويخلو من الأبراج التي تتفرق على أغلب أضلاع السور.

(١) المصدر السابق ، ٦: ٢٠٢ ، ٢٠٣.

(٢) الدكتور علي ابراهيم حسن / التاريخ الاسلامي العام ص٢٨٩.

(٣) الطبري / تاريخ الطبري ٦: ٢٠٣ ، ٢٠٤.

(٤) الكليني / فروع الكافي / كتاب القضاء – باب أدب الحكم ٧: ٢٦٤.

(٥) ماسنيون / خطط الكوفة وشرح خريطتها / تحقيق كلما سلمان الجبوري ص١١٠.

(٦) المصدر السابق ص١٢٥.

(٧) طالب علي الشرقي / قصور العراق.... ص١٠٦ – ١٠٨.

(٨) د. كاظم الجنابي / تخطيط مدينة الكوفة ص١٦١.

ومن خلال إطلاعي على عشرات القصور التي شيدت في العراق حتى نهاية العصر العباسي ، اكتسبت معرفة في كيفية بنائها ومساحات مسقفاتها وملحقاتها الخدمية ومواقعها المختارة. وحين تفحصت مواصفات البناء الذي أسماه الدكتور كاظم الجنابي (قصر أم عريف) وجدت أنه بناءٌ لأحد السجون في الكوفة ، للأسباب الآتية:

١- لم يرد في كتب الخطط والتاريخ إشارة لوجود قصر في هذه البقعة كما يقول الدكتور كاظم الجنابي نفسه.

٢- المخطط الذي كشفت عنه التنقيبات لم تذكر فيه مرافق سكنية وخدمية توحي بأنه دار سكن.

٣- يبلغ سُمك جدران البناء – حسب وصف المنقّبين – ثلاثة أمتار وهذا ما لا يحصل في جدران القصور التقليدية.

٤- البناء محاط بسور سميك يبلغ سمكه ثلاثة أمتار ونصفاً ، ومدعّم بأبراج ضخمة قطر الواحد منها ثلاثة أمتار ، ومثل هذا يوجد عادة في الحصون ودور الإمارة.

٥- أشار الدكتور الجنابي إلى أن هذا البناء معقّد في تصميمه ، أي أنه لا يشبه تصاميم الدور والقصور المكتشفة أو المتبقية.

٦- إنّ موقع البناء بعيد عن الحاضرة بمسافة سبعة كيلو مترات في حدود الكوفة الجنوبية يؤكد ما ذهبنا اليه من أنّ الأثر المكتشف هو سجن وليس قصراً.

ومن الشواهد التي تذكّر بالسجون وبمعاناة الناس فيها في العهد الأموي وفي عهد عبيد الله بن زياد بن أبيه بالذات ، قول الشاعر يزيد بن مفرغ الذي لم يقترف ذنباً عدا ذمّه وهجاءه للحاكم ، فكان ما كان من عقابه الذي يصلح أن يكون عرضاً تفصيلياً لأغلب ما يجري في سجون تلك الحقبة. يقول الشاعر:

لا وَصَومي لربنا وزكاتي
وصلاتي أدعو بها وابتهالي
ما أتيت الغداة أمراً دنيّاً
ولدى الله كابر الأعمال
أيها المالك المرهّب بالقتل
بلغت النكال كل النكال
فاخش ناراً تشوي الوجوه ويوماً
يقذف الناسَ بالدواهي الثقال
قد تعدّيت في القصاص وأدركت
ذخولاً لمعشر أقتال
وكسرت السن الصحيحة منّي
لا تذلني فمنكرٌ إذلالي
وقرنتم مع الخنازير هراً
ويميني مغلولة وشمالي
واطلتم مع العقوبة سجناً
فكم السجن ؟ أو متى أرسالي؟[١]

وهذه أبيات لشاعر معاصر ولكنها تصلح وصفاً لأغلب السجون التعسفية

هو السجن ما أدراك ما السجن إنّه
جلاد البلايا في مضيق التجلد
بناء محيط بالتعاسة والشقا
لظلم بريءٍ أو عقوبة معتد
تظن إذا صدر النهار دخلتها
كأنك في قطع من الليل أسود
فلو كان للعبّاد فيها إقامة
لصلّوا بها ظهراً صلاة التهجد[٢]

أنّ هذا النهج السقيم البعيد عن الشرع والقانون صار من لوازم الحكم في الحقب اللاحقة ، فمارسه الأمويون إلاّ ما ندر من حكامهم وعمالهم. ومارسه العباسيون إلاّ القليل من ملوكهم وولاتهم. ولا يزال سائداً حتى في بعض دول العالم المتحضر ولم تستطع صرخات المحتجين وتدخّل منظمات حقوق الإنسان من حماية السجناء – السياسيين خاصة – من الاضطهاد والتعذيب النفسي والجسدي «وإنْ استجدت إجراءات تناولت إصلاح العقوبة وتحسين أماكن تنفيذها ، وتم تنفيذ إصلاحات قضت على الظروف الضارة بمعنويات المسجونين والتقدم في معالجة المذنبين وتدريبهم على الأعمال والحرف. ومع ذلك فانّ العقاب البدني ما زال يستخدم وسيلة للضبط والإصلاح[٣].

* * *

(١) مقدمة ديوان حصاد السجن لأحمد الصافي النجفي ص١٢.

(٢) ديوان الرصافي ٢: ٤٧.

(٣) محمد شفيق غربال / الموسوعة العربية الميسرة ص ٩٧١.